الوحدة الموضوعية في سورة التحريم

Objective Unity In Surat AL-TAHRIM

عاطف أحمد شاهين[1]

جامعة إفريقيا الفرنسية العربية، الصومال

hr.africa.uni@gmail.com

تاريخ الاستلام: 11 / 02/ 2018 تاريخ القبـول: 15 /03/ 2018

ملخّص

القرآن الكريم هو الكتاب الذي أنزله الله –سبحانه وتعالى– على محمد –صلى الله عليه وسلم– هداية ورحمة للعالمين، وهو كتاب الله الخالد، وحُجّته البالغة، وهو باقٍ إلى أن تفنى الحياة على الأرض، وفيه أنزل الله –عزّ وجلّ– شريعته وحُكمه التامّ الكامل؛ ليتّخذه النّاس شِرْعةً ومنهاجا، وهو معجزة محمد –صلّى الله عليه وسلّم– التي عجز الجنّ والإنس جميعاً عن أن يأتوا بمثلها بعد أن تحدّاهم الله بذلك، فقد قال الله –سبحانه وتعالى–: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء: 88.

وقد يظن القارئ السطحي للقرآن الكريم أن موضوعات السورة الواحدة متناثرة ولا علاقة تربط بينها، لكن القارئ المتأمل الحصيف يدرك أن لكل سورة من سور القرآن الكريم موضوعا محوريا واحدا تدور حوله السورة الواحدة، حتى تبدو السورة وكأنها بنيان واحد متكامل، أو صورة فنية جميلة تتجمع أجزاؤها لتكتمل فتأخذ بالألباب والأبصار.

وهذا ما سنحاول أن نسلط عليه الضوء في هذا البحث من خلال سورة التحريم والذي ننظم عقده في مقدمة وتمهيد وستة مباحث: وخاتمة وفهرس.

الكلمات المفتاحية: التحريم، التوبة، التربية، الجهاد، الإيمان

Abstract

The Noble Qur'an is the book that God Almighty revealed to Muhammad, may God bless him and grant him peace, as guidance and mercy to the worlds. Full; Let the people take it as a law and a method, and it is the miracle of Muhammad - may God bless him and grant him peace - that the jinn and mankind were all unable to come up with something like it after God challenged them to do so. Allah subhanahu wa taala said ("surely,if men and jinn were to get together to produce the like of this Koran they will not be able to produce the lack of it even if some of them were helpers to others .)

The superficial reader of the Holy Qur'an may think that the topics of a single surah are scattered and have no connection between them, but the prudent, contemplating reader realizes that each surah of the Holy Qur'an has one central theme around which one surah revolves, so that the surah appears as if it is a single integrated structure, or a beautiful artistic picture that all parts To be completed and take on hearts and sights.

This is what we will try to shed light on in this research through Surat Al-Forbidden, which we organize to hold in an introduction and preface and six topics: a conclusion and an index
Keywords: prohibition, repentance, education, jihad, faith.

[1] البريد الإلكتروني للمرسل: hr.africa.uni@gmail.com

مقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً * قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾[1]

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، بعثه بعد دروس[2] السبل، وطموس الملل، وعبادة الأوثان، وتفشي الظلم الطغيان، فقام لدين الله ناصحا، ولمعالم الشرك فاضحا، ولعبادة الأصنام قامعا، ولملة الإسلام شارعا، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد:

فإن أعظم العلوم مقدارا، وأرفعها شرفا ومنارا، وأعلاها على الإطلاق، وأولاها تفضيلا بالاستحقاق، وأساس قواعد الشرائع والعلوم، ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم، وأعز ما يرغب فيه، ويعرّج عليه، وأهم ما تناخ المطايا لديه: هو علم التفسير لكتاب العليّ القدير؛ لكونه أوثق العلوم تبيانا، وأحسنها بيانا، وأصدقها قيلا، وأكرمها نتاجا، وألمعها سراجا، وأفصحها حجة ودليلا، وأوضحها محّجة وسبيلا ؛ وشرف العلوم بشرف المعلوم، والمعلوم هنا هو كتاب الله تعالى الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3] أنزله الله على قلب رسوله الكريم ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾[4] وضمن الله لمن آمن به وعمل بما جاء فيه السعادة في الدارين، قال تعالى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[5]

ومن ثَمّ كان علم كتاب الله تعالى والعمل به هو أولى ما يتنافس فيه المتنافسون، وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون.

ومن هنا أردت أن ألحق بركاب هؤلاء الأخيار، وأواصل في مدارسة كتاب الله تعالى الليل بالنهار، وأغوص في بحره الذي لا شاطئ له محاولا أن أجتني بعضًا من كنوزه.

مما هو معلوم أن وجوه إعجاز القرآن الكريم متنوعة و متعددة، وقد عكف العلماء قديما وحديثا على الوقوف على بعض هذه الوجوه، واجتهدوا في الوصول إليها كل الجهد، فهو معجز ببيانه، و معجز بأسلوبه، ومعجز بكلماته و عباراته، ومعجز بموسيقاه التي ترج القلب رجا، وما تتمالك العيون أمام هذه الروعة إلا أن تذرف دموع الإعجاب.

وهو معجز في موضوعاته و مدى ملاءمتها لحاجات البشر و مدى تناغمها مع حياتهم ومستجداتهم، و هو معجز في إنبائه بما حدث في الماضي و بما سيحدث ببعض الأمور المستقبلية.

وهو معجز في ترابطه ترابطا عجيبا بديعا، فكل سورة منه مرتبطة بالسورة التي قبلها و السورة التي بعدها، و كل آية مرتبطة بأختيها.

فالقرآن الكريم مترابط في معانيه و موضوعاته المتفرقة في سور القرآن الكريم كلها.

والقارئ لكل سورة قد يلحظ من الوهلة الأولى أن السورة تتحدث في موضوعات متعددة, ولا علاقة تربط بين هذه الموضوعات. لكن المتأمل و المتدبر لسور القرآن الكريم سوف يدرك أنه لكل سورة موضوعا واحدا تدور حوله، وإن تعددت الموضوعات الفرعية، و إن بدا للناظر أنه لا علاقة بينها.

و كيف لا و هو كلام الخالق جل جلاله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[6] و قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[7]

فقد قيض الله لهذه الأمة الكثير من العلماء الأفذاذ الذين حاولوا أن يجمعوا حبات اللؤلؤ التي قد تبدو متناثرة في كل سورة ليرسم لنا الصورة واضحة كاملة و يبين لنا أنها ليست حبات متناثرة، وإنما هي عقد فريد بديع نظمه الخالق جل شأنه و من هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ سيد قطب –رحمه الله تعالى– الذي بيَّن لنا بقلمه المبدع في تقديمه لكل سورة كيف أن للسورة الواحدة موضوعا محوريا تدور حوله و كذلك صاحب الأساس في التفسير الشيخ سعيد حوى–رحمه الله تعالى–.

وفي هذا البحث الصغير أحاول أن اقف على سورة من سور القرآن الكريم، وأسلط الضوء على الوحدة الموضوعية لهذه السورة، وكيف أن السورة كلها تدور حول موضوع واحد، وإن بدا للقارئ غير ذلك وهي سورة التحريم.

وذلك لأن إدراك الوحدة الموضوعية للسورة يعين القارئ على فهم آياتها وتدبر معانيها.

ولم لا يكون موضوع السورة واحدا ؟! وهي سورة (اسمها سورة) وكأنما سمُيت بذلك تشبيها لها بالبناء العظيم المتكامل الذي له سور واحد يحد بحدود، ويربط بين أجزائه.

والمتأمل للقصص القرآني الذي ورد في أكثر من موضع في سور القرآن الكريم سيلاحظ كيف تم سرد هذه القصة في هذه السورة بهذا الأسلوب وبهذه الألفاظ حتى يتلاءم مع موضوع السورة، ويصب في الهدف العام للسورة في ترابط عجيب, و بأسلوب فريد, بحيث يستحيل أمام كل عاقل أن يشك أن هذا البناء المحكم من نسج بشر.

والمقصود بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم هو بيان أن السورة القرآنية الواحدة تتحدث في موضوع واحد، وتدور حول نقطة واحدة مترابطة ومتسلسلة مما يجعل القارئ أكثر تدبرا و تعايشا مع السورة.

والمقصود بها أيضا" أن الموضوع الواحد في القرآن الكريم يرد في مواضع متفرقة، وبصور متنوعة، ولمناسبات متعددة، ومع ذلك فلو جمعت آيات الموضوع الواحد لكونت بناء واحدا قويا محكما، و لأصبحت نسيجا واحدا متناسقا بديعا، ولقد كثرت الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم خاصة في هذا العصر"[8]

المبحث الأول: التعريف بسورة التحريم

سورة التحريم سورة مدنية، عدد آياتها اثنتا عشرة آية، وهي تعرض صفحة من حياة البيت النبوي بما فيها من انفعالات بشرية طبيعية بين النبي – صلى الله عليه وسلم – ونسائه، وبين أمهات المؤمنين بعضهم البعض، مثل الغيرة، والمكيدة، والغضب، وغير ذلك مما يحدث بين البشر ؛ لتبين هذه الصفحة أن من يعيشون في هذا البيت بشر وليسوا ملائكة، فالبيت النبوي هو البيت القدوة لجميع بيوتات الأمة، والبشر يقتدون بالبشر لا بالملائكة.

كما تبين هذه الصفحة أثر ذلك في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحياة المجتمع المسلم آنذاك، ثم يتبعها سبحانه وتعالى – على ضوء ذلك – بتوجهات عامة لبيوت المسلمين كافة. وأتناول هذه الصفحة – باختصار شديد – في النقاط التالية:

المبحث الثاني: تحريم النبي على نفسه بعض ما أحله الله له

هذه الصفحة من بيت الرسول – صلى الله عليه وسلم – نقرأ فيها حادثة تحريم النبي – صلى الله عليه وسلم – على نفسه بعض ما أحله الله له إرضاء لبعض زوجاته.

واختلف المفسرون فيما حرَّمه النبي – صلى الله عليه وسلم – على نفسه على قولين:

أولهما: أنه – صلى الله عليه وسلم –حرَّم على نفسه سُرِّيته مارية. قال الطبري: (عن زيد بن أسلم، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصاب أمَّ إبراهيم في بيت بعض نسائه؛ قال: فقالت: أي رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها عليه حراما؛ فقالت: يا رسول الله،كيف تحرّم عليك الحلال؟، فحلف لها بالله ألا يصيبها، فأنزل الله– عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾قال زيد: فقوله أنت عليّ حرام لغو[9]" هذه هي الرواية الأولى.

أما القول الثاني: فقد روى الْبُخَارِيُّ فِي باب (ما يكره من احتيال المرأة مع الزوج): عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يُحِبُّ الحَلْوَاءَ، وَيُحِبُّ العَسَلَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى العَصْرَ أَجَازَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ، فَدَخَلَ

عَلَى حَفْصَةَ، فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِي: أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةَ عَسَلٍ (العُكَّة: إناء أو زِقٌّ صغير، وهو أصغر من القربة)، فَسَقَتْ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – مِنْهُ شَرْبَةً، فَقُلْتُ: أَمَا وَاللَّهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَوْدَةَ، قُلْتُ: إِذَا دَخَلَ عَلَيْكِ فَإِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ، فَقُولِي لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ[10]، فَإِنَّهُ سَيَقُولُ: لاَ، فَقُولِي لَهُ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ، فَإِنَّهُ سَيَقُولُ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ، فَقُولِي لَهُ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ، وَسَأَقُولُ ذَلِكِ: وَقُولِيهِ أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى سَوْدَةَ، قُلْتُ: تَقُولُ سَوْدَةُ: وَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَقَدْ كِدْتُ أَنْ أُبَادِرَهُ بِالَّذِي قُلْتِ لِي وَإِنَّهُ لَعَلَى البَابِ، فَرَقًا مِنْكِ، فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ قَالَ: «لاَ»، قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ قَالَ: سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ، قُلْتُ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ قُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَدَخَلَ عَلَى صَفِيَّةَ فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ قَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ أَسْقِيكَ مِنْهُ ؟ قَالَ: لاَ حَاجَةَ لِي بِهِ، قَالَتْ: تَقُولُ سَوْدَةُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، لَقَدْ حَرَمْنَاهُ، قَالَتْ: قُلْتُ لَهَا: اسْكُتِي)[11]

وكلتا الروايتين جائزة الحدوث، والله أعلم أي منهما كان سببا في إيلاء النبي – صلى الله عليه وسلم –من أزواجه، ولكن الذي نجزم به أن سبب الإيلاء هو غضب النبي – صلى الله عليه وسلم –من بعض أمهات المؤمنين بسبب ما قمن به من أفعال كان الدافع من ورائها الغيرة الزائدة

المبحث الثالث: الحث الإلهي على التوبة لمفشِية السر والمفشَى لها

لما أطلعه الله على ما بدر من بعض نسائه من إفشاء سره – صلى الله عليه وسلم –وواجه من أفشته بما علم لم يواجهها بكل ما علمه بل اكتفى بالإشارة فقط – صلى الله عليه وسلم – {عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ }، قال أبو حيان: "تَكَرُّمًا وَحَيَاءً وَحُسْنَ عِشْرَةٍ. قَالَ الْحَسَنُ: مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ. وَقَالَ سُفْيَانُ: مَا زَالَ التَّغَافُلُ مِنْ فِعْلِ الْكِرَامِ "[12]

إفشاء سر الزوج ذنب يجب على الزوجة التوبة منه، وكل ما يحدث بين الزوج وزوجته سواء كان علاقتهما العاطفية، أو حالتهما المادية، أو غير ذلك يعتبر من أسرار البيوت، ويجب على الزوجة المحافظة عليه. عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ — رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ– صلى الله عليه وسلم–: ((خَمْسٌ هُنَّ فَوَاسِمُ الظَّهْرِ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَالْمَرْأَةُ يَأْتَمِنُهَا زَوْجُهَا تَخُونُهُ، وَالْإِمامُ يُطِيعُهُ النَّاسُ وَيَعْصِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ وَعَدَ عَنْ نَفْسِهِ خَيْرًا فَأَخْلَفَ، وَاعْتِرَاضُ الْمَرْءِ فِي أَنْسَابِ النَّاسِ))[13]

والتي أفشت السر واحدة فقط، ولكن جاء الخطاب للاثنتين بالمسارعة إلى التوبة، قال تعالى:﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: 4) ؛ لأن المستمع إلى المخطئ دون ردعه يعتبر شريكا له في الخطأ. إذ لم يقم معه بحق النصح. والإصغاء إليه تشجيع له على التمادي فيه، وإقرار ضمني للمخطئ.

فإن لم يبادرا بالتوبة وأصرتا على ما فعلتا، وعلى التحزب عليه فإنه –عليه الصلاة والسلام – لن يعدم النصير وأول الناصرين له هو الله مولاه { فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ}

قال العلامة ابن عاشور: "أي مظاهره ومعينه، والأحسن الوقف على قوله: مولاه. ويكون وجبريل مبتدأ، وما بعده معطوف عليه، والخبر ظهير. فيكون ابتداء الجملة بجبريل، وهو أمين وحي الله واختتامه بالملائكة... فعلى هذا جبريل داخل في الظهراء لا في الولاية، ويختص الرسول بأن الله هو مولاه. وجوزوا أن يكون وجبريل وصالح المؤمنين عطفا على اسم الله، فيدخلان في الولاية، ويكون والملائكة مبتدأ، والخبر ظهير، فيكون جبريل داخلا في الولاية بالنص، وفي الظهراء بالعموم، والظاهر عموم وصالح المؤمنين فيشمل كل صالح.."[14]

الله سبحانه وتعالى يكفي عبده ونبيه مؤيدا ونصيرا، ولكن هذا التعدد و التفصيل ليوحي بحب السماء له، وأدرج صالح المؤمنين بين جبريل والملائكة ليوحي بحب الصالحين من أهل الأرض له – صلى الله عليه وسلم –، وبهذا يكون – صلى الله عليه وسلم –قد فاز بحب ونصرة الأرض و السماء. ومن كان الله مولاه فقد كفاه، ومن كان جبريل والملائكة وصالح المؤمنين له ظهير ونصير فما حاجته إلى نصرة امرأتين ضعيفتين مثلهما.

وجاء الخطاب شديد اللهجة منه سبحانه مع تهديد بالطلاق معرِّضا بذلك لمن يتمالأ عليه من المشركين والمنافقين، أنه إذا كان هذا رده سبحانه على من حاول التمالؤ عليه حبًّا فيه – صلى الله عليه وسلم – وغيرة عليه؟ فما بالنا بمن يتمالأ عليه من المشركين بغضا له ولدعوته.

المبحث الرابع: توجيه النداء العام لأمهات المؤمنين

ثم يوجه سبحانه نداء لأمهات المؤمنين جميعا لئلا تفكر واحدة منهن في إغضاب حبيب الرحمن مرة أخرى، وأن الذي زوجه إياكن قادر على أن يبدله أزواجا خيرا منكن، وعدَّد أوصافا ثمانية لهؤلاء الزوجات المحتملات

وهذه الآية إلى قوله: "خيرا منكن" إحدى موافقات عمر –رضي الله عنه–، فقد وردت في حديث في «الصحيحين» واللفظ للبخاري. عن عمر–رضي الله عنه – قال : ((وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلاَثٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(البقرة: 125 وَآيَةُ الحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ }، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)[15]

وعدَّد سبحانه هذه الصفات الثمانية تعريضا منه سبحانه إلى أن هذه هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها زوجات الرسول – صلى الله عليه وسلم –

وقوله تعالى: {خَيْرًا مِنْكُنَّ } ليس معناه أن هناك من النساء من هن خير من أمهات المؤمنين، ولكن هذا يعني أن زوجات الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد اكتسبن صفة الخيرية على نساء المؤمنين بقربهن وزواجهن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وإذا ما فارقهن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقد فقدن هذه الخيرية، ومن يختارها الله – عز وجل – لنبيه – صلى الله عليه وسلم –بدلا منهن ستكون في هذه الحالة خيرا منهن في حال مفارقته وتطليقه لهن. إذ يصبحن أمهات المؤمنين بدلا منهن.

ثم أتبع سبحانه وتعالى موعظة أمهات المؤمنين خاصة بموعظة عامة للمؤمنين وَأَهْلِيهِمْ، وَعَطَفَ وَأَهْلِيكُمْ عَلَى أَنْفُسَكُمْ، لِأَنَّ رَبَّ المنزل راع وهو مسؤول عَنْ أَهْلِهِ. يقي نفسه أولا بطاعة الله –عز وجل – وأهله بحَمْلهم عَلَى طَاعَتِهِ.

المبحث الخامس: الاهتمام بالتربية الأسرية وعدم التغافل عن خطر الكفار والمنافقين

ثم ينتقل سبحانه وتعالى إلى جزء آخر من أجزاء هذه الصورة الفنية البديعة وهو وجوب الاهتمام – بعد إصلاح النفس وتهذيبها – بالبيت المسلم، إذ إنه اللبنة الأولى التي تتكون منها الأمم والمجتمعات، وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع بأسره، فيقول – جل شأنه –: ﴿يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾

فأنت أيها المسلم الحصيف لست مسؤولا عن نفسك فقط، بل أنت مسؤول عن بيتك وأسرتك أمام الله – عز وجل – كما نبهنا لهذا الصادق المصدوق – صلى الله عليه وسلم – حين قال: " كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته....."[16]

وفي ظل هذه التربية لبيتك المسلم لا تتغافل عن تربية نفسك وتهذيبها بالتوبة والعمل الصالح، لأن المسلم قبل أن يكون مسؤولا عن بيته وأسرته فهو مسؤول في المقام الأول أمام الله عن نفسه.

ثم يوجه – سبحانه – النداء لرسوله الكريم بجهاد أعداء الظاهر والباطن وهم المشركون والمنافقون، في إشارة لطيفة إلى وجوب الانتباه والتيقظ والاستعداد لجهاد الأعداء ولا تصرفنا المشكلات الأسرية عن هذا الأمر الجليل.

نفهم من هذا أنه كلما نجحنا في تربية البيوت التربية السليمة كلما أفرغنا الوسع والجهد والطاقات المادية والمعنوية لجهاد الأعداء.

وفيه أيضا إشارة لنساء النبي – صلى الله عليه وسلم – بألا يشغلن النبي – صلى الله عليه وسلم – بمعارك عاطفية جانبية عن الجهاد في سبيل الله لنشر الدعوة ورفع راية التوحيد. وكذلك كل نساء المؤمنين من بعدهن بأن يكن عونا لأزواجهن في دعوته لا عنصر إحباط وإفشال.

المبحث السادس: مثلان لتقريب الصورة

ثم يضرب الله –عز وجل – مثلا للذين كفروا بامرأتين من أهل النار وهما زوجتا نبيين كريمين: نوح ولوط – عليهما السلام– ؛ ليعلِّم بذلك زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم –أن قرب هاتين المرأتين من هذين النبيين لم ينفعهما عند الله بسبب خيانتهما لهما بإفشاء سرِّهما، مُعرِّضا سبحانه بأن إفشاء سر الزوج خيانة له، وليس المقصود بالخيانة هنا ارتكاب الفاحشة.

قال ابن كثير: "قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ قَتَّةَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ–رضي الله عنه– يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:(فَخَانَتَاهُمَا) قَالَ: مَا زَنَتَا، أَمَّا امْرَأَةُ نُوحٍ فَكَانَتْ تُخْبِرُ أَنَّهُ مَجْنُونٌ، وَأَمَّا خِيَانَةُ امْرَأَةِ لُوطٍ فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى أَضْيَافِهِ "[17]

وعلى النقيض من ذلك ضرب الله مثلا آخر بامرأتين مؤمنتين كانتا تعيشان في بيئة ملبدة بالكفر، فلم يضرهما ذلك وكانتا من أهل الجنة. وهما: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران وهما من أفضل نساء أهل الجنة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ((خَطّ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، وَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صلى الله عليه وسلم–: أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ)[18]

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم–أَنَّهُ قَالَ: ((كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيلد، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيد عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)) (19)

وهاتان المرأتان مثالان للمرأة العفيفة الطاهرة الصابرة، يضربهما الله –عز وجل– لنساء النبي– صلى الله عليه وسلم–، ولجميع نساء الأمة بعد ذلك في كل جيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خاتمة

من هذا العرض الموجز يتضح لنا الوحدة الموضوعية لسورة التحريم، إذ إنها تدور حول موضوع محوري واحد و هو بيان أن الميزان الذي يزن الله به العباد هو ميزان التقوي و القرب من الله– عز وجل – وليس ميزان القرابة من نبي أو ولي.

فقد بدأت السورة بعتاب لطيف من المولى –عز وجل– لحبيبه محمد –صلي الله عليه وسلم– بسبب تحريمه على نفسه ما أحله الله له إرضاء لبعض زوجاته، ثم ذكر سبحانه طرفا من القصة و هو إسرار النبي –صلى الله عليه و سلم– لبعض أزواجه بسر ما، و كيف أفشت زوجته هذا السر، ثم تعجبها من علم النبي –صلى الله عليه و سلم– بما حدث، ثم توجيه الخطاب الصارم من الله –عز وجل– للاثنتين بالتوبة: مفشية السر و المفشى لها، وإن تمالأتما عليه فلا حاجة له بكما فإن الله –عز وجل– نصيره، و الكون بما فيه و الملائكة و المؤمنون.

ثم يبَّين سبحانه لنساء النبي جميعا أنهن ما اكتسبن فضلهن على نساء العالمين إلا لقربهن من الحبيب –صلى الله عليه و سلم–، وأن الله –عز و جل– قادر أن يبدله أزواجا خيرا منهن ثم عدَّد صفات هؤلاء الزوجات المحتملات.

ثم يأتي الأمر من الله –عز وجل– لنبيه بجهاد المشركين وفي هذا بيانٌ كيف أن النبي–صلى الله عليه وسلم– محاط بجيشين: جيش من الأعداء يريد القضاء عليه، وجيش من الأحباب كلهن يردن الاستئثار بقلبه. كما أن فيها تنبيها على وجوب الاهتمام ببناء البيت المسلم لئلا تشغلنا ترميماته بعد ذلك عن جهاد المشركين والمنافقين.

ثم يورد الله –عز وجل– في نهاية السورة مثلين: مثلاً لزوجتي نبيين مثلهما، وكيف أن هذه الرابطة الزوجية لم تنفعهما بشيء مع كفرهما. ومثلا آخر لامرأتين مؤمنتين: امرأة فرعون و كيف أنها من أهل الجنة مع أنها لم تكن زوجة نبي بل كانت زوجة عدو الله الأول في ذلك الزمان، و مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وكانت من القانتين.

فيا لجمال بيان هذه السورة، ويا لروعة تسلسلها و ترابطها، ويا لسحر جرسها الموسيقي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التهميش:

1 – سورة الكهف: 1: 3

2 – درس السبيل دروسا من باب قعد:عفا وخفيت آثاره

[3] – سورة فصلت:42 0

[4] – سورة البقرة: 185 0

[5] – سورة طه: 123:126

[6] – سورة فصلت:42 0

7 – سورة النساء: 88

8– ومن أهم الدراسات الموضوعية في هذا المجال تلك الرسالة التي حصل بها الأستاذ الدكتور محمد محمود حجازي على درجة العالمية الدكتوراه من كلية أصول الدين بالقاهرة ، وهى بعنوان الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

ومن ضمن الكتب التي سارت على هذا المنوال:المرأة في القرآن الكريم ، الإنسان في القرآن الكريم –للأستاذ عباس العقاد ، الصبر في القرآن الكريم للدكتور يوسف القرضاوي ، دستور الأخلاق في القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ، موقف سورة آل عمران من أهل الكتاب للأستاذ الدكتور على الشريف ، وبحثي المتواضع: الحوار الأسري في القرآن الكريم.

9 – الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (المتوفى: 310هـ) – جامع البيان في تأويل القرآن475/2423 المحقق: أحمد محمد شاكر،الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م، عدد الأجزاء: 24

10 – المغافير: صمغ كريه الرائحة يغش به العسل يستخرج من نبات يسمى العُرفُط

11 – البخاري، محمد بن إسماعيل – صحيح البخاري 26/9 رقم 6972، باب: ما يكره من احتيال المرأة على الزوج

12 – أبو حيان، محمد بن حيان الأندلسي – البحر المحيط في التفسير. (المتوفى: 745هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة: 1420 هـ –210/10

13 – البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (المتوفى: 458هـ) ، شعب الإيمان137/7 رقم 4781 ، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ – 2003 م ، عدد الأجزاء: 14 –الألباني – الجامع الصغير وزيادته 6604/1 وحكم الألباني: ضعيف

14 – أبو حيان الأندلسي – البحر المحيط 211/10

15 –البخاري، محمد بن إسماعيل – صحيح البخاري 89/1 رقم 402، باب: ما جاء في القبلة

16 – متفق عليه

17 – ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر – تفسير القرآن العظيم 171/8، المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولى – 1419 هـ

18 – ابن حنبل ، أحمد بن محمد الشيباني– مسند أحمد ط الرسالة 409/4 رقم2668، باب: مسند عبد الله بن العباس ، صححه الألباني في الجامع الصغير رقم2015.

19 – البخاري ، محمد بن إسماعيل – صحيح البخاري 158/4 رقم3411، باب قوله تعالى: "وضرب الله مثلا للذين آمنوا " ، مسلم بن الحجاج – صحيح مسلم 1886/4رقم 2431، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن حنبل الشيباني، أبو عبد الله أحمد (المتوفى: 241هـ) – مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م، عدد الأجزاء: 8
2. ابن عاشور التونسي، محمد الطاهر (المتوفى: 1393هـ) – التحرير والتنوير = «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: 1984 م. عدد الأجزاء: 30 (والجزء رقم 8 في قسمين)
3. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) – تفسير القرآن العظيم، المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولى – 1419 هـ
4. أبو السعود العمادي بن مصطفى (المتوفى: 982هـ) – تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
5. أبو حيان، محمد بن حيان الأندلسي (المتوفى: 745هـ) البحر المحيط في التفسير. المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة: 1420 هـ
6. الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح (المتوفى: 1420هـ)، صحيح الجامع الصغير وزياداته– الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: 2
7. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، شعب الإيمان: (المتوفى: 458هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند
8. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (المتوفى: 310هـ) – جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م، عدد الأجزاء: 24
9. الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م، عدد الأجزاء: 14 (13، ومجلد للفهارس)
10. مسلم بن الحجاج – المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ص، (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، عدد الأجزاء: 5